مقدّمة

خصائص الفكر الشرقى والغربى :

إن من يتناولون فلاسفة الشرق بالدراسة ، بعد دراسة عميقة للفكر الغربى – لابد أن يسترعى انتباههم مظهر واحد بارز ، إذ إنه فى الوقت الذى نجد فيه عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب ، وخاصة فى العصر الحديث ، يسهبون فى شرح مسائل فنية دقيقة ويظهرون أنهم يتجنبون العموميات حول الكون باعتباره كلا ، نجد أن فلاسفة الشرق لم تغب عن نظرهم قط المسألة الأساسية ، أعنى تلك التى تتناول معنى الحياة والغرض منها . ومن أقدم التأملات الفلسفية الملازمة فى كل من «الفيداس» و«اليوبانيشادات» الهندية ، إلى حكماء الهند المعاصرين ، استمر البحث بدون توقف لا سعياً وراء المزيد من اليقين بقدر ما هو بحث عن الحقيقة . كما أن هذا الانشغال لم يكن وقفاً على قلة قليلة من الناس ، لهم تفردهم وعلمهم أو ورعهم فى كل جيل ، بل فرض نفسه على عقول ملايين ممن هم نكرات صابرون كادحون ، ممن يعج بهم الشرق ، من وجهة نظر الغرب . ومن ثم كان هذا التمييز الذى كثيراً ما يستشهد به والذى يلقى قبولاً من الجميع ، بين «مادية الغرب» و«صوفية الشرق» .

وإذا ما انتقلنا لنفحص عن قرب فكر فلاسفة الشرق نجد أن مثل هذا التعميم فى حاجة إلى وصف وتحديد : فالفكر الشرقى له مظهره المادى تماماً مثل الفكر الغربى الذى له عصبه القوى فى الصوفية ؛ بل أكثر من هذا ، إن أعظم صورة للمادية مثل ما يتضمن إنكار حقيقة المادة نفسها ، من المحتمل ، عن طريق رد الفعل ، أن تستحيل إلى ضدها : فمثلاً النظرية التى تنكر وجود الجسم البشرى تبين بالبحث أنها تهتم إلى حد كبير بالحفاظ على الصحة البدنية . وصوفية البوذية ، وهى من المفروض عنها بوجه عام أنها من بين أنقى وأسمى صور المثالية ، مرتبطة بنظرية المعرفة التى قد ترضى أعظم الماديين أو الوضعيين الغربيين صلابة فى الرأى ؛ وأخيراً ، على غير شاكلة كنفوشيوس العادل النبيل ، يمكن للشرق أن يخرج أكثر من مفكر «أخلاقى»

مشهور تتجاوز «كلبيته» ودهاؤه حدود أى شيء نادى به مكيافيللى Machiavelli نفسه[١]

وتلك العناصر المشتركة بين كل من الفكر الشرقى والفكر الغربى لابد أن تؤكد لنا الاعتقاد الذى كثيراً ما أنكر أن العقلية البشرية فى أى مكان واحدة ومتشابهة ، أو على الأقل ، تعمل بالطريقة نفسها ولهذا ، يجب أن نتجنب المغالاة فى الفوارق ، والقول بأن قزماً من آندامان وزارعاً فى ميدلويست فى الولايات المتحدة الأمريكية لابد أن يتبعا منهجاً منطقياً مختلفاً ، أمر لا يمكن تصوره ، برغم أنه من الواضح أنهما يبدأان من بديهيات مختلفة جداً . إن ما يضفى على دراسة الفكر الشرقى سحره الخاص به هو حقيقة أنه ليس مجرد كونه أعرق قدما من الفكر الغربى بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد . وفى استعراضنا لتاريخ الفكر البشرى الطويل نلاحظ أن البحث الفلسفى الغربى ما هو إلا مجرد فرع ؛ برغم ازدهاره ، من شجرة العائلة الشرقية ، تماماً كما أن أوربا (كما جاء فى عبارة بول فاليرى Paul Valéry) ما هى إلا مجرد قبعة دقيقة ناتئة من آسيا . وهذا بلا شك هو السبب فى أن المفكرين الأوربيين أمثال تشيلنج Schelling وشوبنهاور Schopenhauer وجوته Goethe وتولستوى Tolstoy قد أدهشهم ، عند بدء تعرفهم على الفلسفة الشرقية عمقها المذهل ، وهى فى الواقع عميقة ؛ وعمقها هو ذلك العمق الذى هو نتيجة أن لها جذوراً عميقة .

متطلبات الفكر الشرقى :

لقد كان الاستمرار غير العادى للفكر الشرقى ، وطول التقديس لتقليد التأمل فى القيم الأساسية مسئولين عن رأى آخر مألوف ، أعنى أن الفكر الشرقى ، بالضرورة ، فكر ثابت . وهنا نجد مرة أخرى أن العبارة قد يكون لها معنى لو طبقت على هيئة صناعية ، أو أساليب صحية أو حتى فى التعامل الدبلوماسى ، وهى تتطلب خاصية هامة عند تطبيقها على المفهوم الشرقى للحياة ، وذلك المفهوم ليس ثابتاً . لقد كان أفضل ما وصف به هو أنه متناسق وأنه لا ينكر الثبات ولكنه بالأحرى تلازمه فكرة التكرار السرمدى . ومحاولة تحديد ذلك الذى كان سبباً فى الأصل فى نشأة التأمل الفلسفى فى العالم ، ومتى اتخذ أولاً صورة منتظمة ، هى

---

(١) أمثال : كوتيليا تشاناكيا Kautilya Chanakya (مستشار الحاكم الهندى تشاندرا جوبتا)Chandragupta (حوالى ٣٢٢ – ٢٩٨ ق . م) وكذلك يانج تشو Yang Chu(حوالى ٣٩٠ ق . م . . وهسن – تزى)Hsun-Tze (٣٠٥ – ٢٣٥ ق . م . وبالنسبة للأخير ، انظر : الفصل السابع من هذا الكتاب :

بلا شك لعبة خطرة ، وربما كانت لعبة عديمة الجدوى ، ولكن فيما له صلة بالشرق فإن عملية توالد الحيوان والبشر ، وتناسق البذر والحصاد ، وبالمثل المعجزة اليومية معجزة بزوغ الشمس وغروبها ، قد تبدو أنها أوحت على الأقل بمبدأ ميتافيزيقى قديم ، أعنى تناسخ الأرواح . هذا المبدأ أبقى عليه الفكر الهندى منذ قدم عريق[٢] ، وفى تقبله بلا نقد أو برهان ، سعى مجددون أمثال : جوتاما بوذا Gotama Buddha فحسب ، إلى تعميق معناه وفرض وسائل للتقليل من أهواله ؛ لأنه مبدأ مروع جليل فى وقت واحد ، كما أنه لم يوفق متشكك مثل مهافيرا Mahavira، مؤسس الديانة الجينية Jain Religion (٥٩٩ – ٥٢٧ ق . م) فى التخفيف من تأثيره على عامة الشعب ؛ لأنه على أية حال أليس مبدأ التناسخ سوى اعتقاد بأن القانون الذى يطبق تقريباً على كل شىء فى الطبيعة يطبق بالمثل – وربما بصورة فائقة – على روح الإنسان ؟

وهكذا زاد انشغال الذهن الشرقى تماماً بهذا الرأى من التجسد الثانى ، أو التجدد السرمدى للنفس البشرية فى عدد لا ينتهى من الصور ، حتى بات العمل الأساسى لكل نبى شرقى عظيم هو أن يوضح أن مثل هذا الرأى المتواتر غير المحتمل كيف يمكن تجنبه . ولما كان مثل هذا الشر العظيم من الصعب توقع إذعانه لأى علاج مبكر ، فلقد كان هناك إحساس بأن انعدام الرغبة – إن أمكن على الإطلاق أو حتى لو أمكن فقط بعد تجارب متكررة – لم يكن ثمناً غالياً يدفع مقابل التحرر النهائى من الشعور بالوجود وبدلاً من أن يهدئ مبدأ الهدوء من روع الفكر الشرقى ويسكّنه ، لم يكابد هذا الفكر إلا منه ، وإن ما يظل الحكيم الشرقى أو الفقير الهندى على علم به بوضوح تام ، على الأقل مثل هذا الجانب السماذى Samadhi[٣] ، هو عاصفة وضغط الغريزة والعاطفة والرغبة . ولا يتحدث الناس دائماً عن السلام الداخلى إذا كانوا يحسون به بالفعل على أنه ملكية لا يمكن التصرف فيها .

وفى تاريخ الفكر الغربى هناك شىء اسمه فلسفة وشىء اسمه لاهوت ، وكان من الممكن دائماً ، اللهم إلا خلال فترات معينة مثل فترات العصور الوسطى ، التمييز بين الاثنين ، ولكن فى تاريخ الفكر الشرقى هناك فقط شىء اسمه لاهوت ، وهذا صحيح حتى فيما يتصل بالفكر

---

(٢) تجد تحليلاً لبعض الأسباب التى لابد أن جعلته يشغل أذهان الشرقيين لفترة طويلة ، فى الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٣) هى حالة التحرر النهائى من الشعور بالوجود ، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

الإنسانى عند كنفوشيوس ، الذى هو مجرد مبدأ أخلاق ، صار منفصلاً عن الدين مقدماً ما يبرر ذلك . والفلسفة إذا ما طلبت باعتبارها لعبة علمانية ، تكنيك يمكن اكتسابها فى جامعة أو ندوات غير دراسية ، كوسيلة تتيح لطالب العلم أن يكون قديراً فى مناقشاته ، ليست مجرد إنتاج غربى ، بل هى إنتاج حديث العهد تماماً . وفى الشرق من المحال أن تكون فيلسوفاً دون أن تكون حكيماً أيضاً . وفى الغرب ، فإن الأمر ليس بمتاح فحسب ، بل هو أمر يوصى به بدرجة عظيمة لأنه من الصعب أن تكون حكيماً فى أوربا ويقل دخلك عن بضعة آلاف من الجنيهات سنويا .

الفلسفة والأسطورة :

برغم ما أكدناه من عدم جدوى السعى فى شرح أصول الفكر الفلسفى ، فليس من غير المعقول أن نفترض ، أخذاً برأى الفيلسوف الإيطالى جيامبا تيستا فيكو Giambattista Vico ، أن مثل هذا الفكر أو مثل هذه المناهج الفكرية نشأت فى محيط الأسطورة[٤] ، وهناك سبق منطقى إن لم يكن هناك سبق زمنى ، للخيال على التفكير ، وكلما بقيت الفلسفة على ارتباطها بالدين أو بالتصوف فستظل مقترنة بالأسطورة . وفى الفكر الغربى حدث الانفصال بين الفلسفة والأسطورة على الأقل فى وقت مبكر وقت مخالفة أرسطو لأفلاطون ؛ ولاشك أن الأهمية التى احتلتها الأسطورة فى فلسفة أفلاطون قد دفعت بعدد من المعلقين إلى افتراض أنه كان مستغرقاً فى علوم الشرق ، بل إنه قد قام برحلات سرية إلى بابل وفارس . وبتطور الفلسفة الغربية ، ملأت المسيحية الثغرة التى خلقها إقصاء الآلهة الوثنية أو على الأقل عودتها «سراً» ، كما حدث .

وفى نهاية العصور الوسطى ، عندما بدأ التأثير العقلى للعقيدة المسيحية فى التناقص عاد الباعث الأسطورى البحت يؤكد وجوده ، ولكنه صار بعد ذلك مقترناً بمغامرات البطل العلمى الجديد المسمى المادة Matter ولاشك أن الباعث الفلسفى الذى سمى تسمية صائبة ، أعنى التقصى النزيه للأسباب والعلل والبيِّنة ، قد اتخذ نشأته أول ما اتخذ من صراع الأسطورة

---

(٤) للتوسع فى دراسة هذا الموضوع أحيل القارئ إلى مقال غاية فى الطرافة عنوانه «الأسطورة والحقيقة Myth and Reality» نشر فى مجلة بعنوان «قبل الفلسفة Before Philosophy» إعداد فرانكفورت (سلسلة بنجوين ، ١٩٤٩) .

القبلية ، سواء نتيجة لغزو ، أو امتزاج طبيعى دفاعاً ضد الإنسان أو الطبيعة ، أو ارتحال أو زواج خارج العشيرة Exogamy. ومطالب الآلهة المتنافسة ، وقتها ، كان لابد من مناقشتها وتقييمها فى محاكم البشر. وإنماء تطوير القدرة البشرية على الاستدلال هى نتيجة التكاثر المقدس . ومما يضلل مؤرخ الفكر الغربى هو أن يعزو الصفات العقلية الخاصة بالأيونيين وحبهم للاستطلاع وللبحث ، إلى عامل البيئة والبيئة وحدها . والبيئة الآن كلمة شاملة . ولسنا على يقين تام بالقدر الذى قُصد بها أن تشمله ، ومع ذلك ، فلو أن البيئة تعنى فحسب الظروف الجغرافية ، إذن فلن تكون هذه الظروف أبداً «علة» فى أى معنى صحيح للكلمة . وتوكيد أن الإنسان ثمرة ما يحيط به هو القول بأنه جزء منه ؛ ففى هذه الحالة ليس هناك شىء إيجابى يحاط به . والبيئة بالمعنى الدقيق هى علة ما يختاره الإنسان ليكتشف كنهه . وعند ما شد الإغريق الرومانتيكى اهتمامنا إلى الجمال الوجدانى للريف والشاطىء الإغريقيين موحياً أنه بمثل هذه الدقة والوضوح لما رسمه والجو «الإلهامى» الذى صوره قد أمد المفكرين الأيونيين الأولين بإلهام مباشر ، فإنه يعجز عن أن يفسر كيف أنه اعتباراً فقط من طاليس الملطى فى القرن السادس ق . م ، بدأ الإغريق بالفعل فى الاستجابة لهذه الصورة الخاصة من الإثـارة . وكانت المجتمعات التى تعيش فى ظروف لا تقل ملاءمة ، قد عرفت بأنها تغط فى سباتها كما كانت عاجزة عن القيام بأية إنجازات ، وامتزاج الأجناس ، ونمو التجارة وخبرة الملاحة البحرية – لعل هذه هى العوامل الحاسمة فى ظهور روح البحث عند الأيونيين ، لأنه كيف لأناس قاموا باتصالات على التوالى مع المصريين والفينيقيين والكلدانيين والبابليين ، وهى شعوب متباينة فى عاداتها ولغاتها وأنماط حياتها ، كيف يمكن أن يفشلوا فى عقد مقارنة مع بعضهم بعضاً ، وبعد المقارنة يصدرون حكماً ، وبعد إصدارهم الحكم يقومون بالتنسيق ؟

الرؤية الموحدة :

لهذا ينبغى علينا أن ننظر إلى الفكر الغربى على أنه النقطة التى يقترن فيها الخيال الشرقى بالعمل ، تماماً مثل الكنائس المسيحية التى هى المظهر العملى للتصوف الشرقى . ونمو العلم التطبيقى هو بالمثل اقتران حتمى للدراسة الفلسفية الغربية ، لأننا لا نستطيع أن نعمل إلا فى عالم نؤمن بأنه واقعى وجدير بالعيش فيه معاً ، واليوم ، فإن صفات مثل الواقعية والقيم هى تماماً تلك الصفات التى يرفض الفكر الشرقى ، مع استثناءات معينة ، أن ينسبها للعالم الطبيعى .

والمثل ، نجد أن فلاسفة الغرب ، باستثناء قلة قليلة منهم (مثل شوبنهاور) يفترضون أن أول واجب من واجبات الإنسان هو أن يرى حياته الواعية ، ويزيد من إدراكه لعالم الحس ، بهدف تحقيق سيادته على بيئته . وبمقارنة الوضع فى الشرق نجد فيما يتصل بالهندوسية والبوذية ، أن الهدف هو تحقيق الهروب من الوعى ، وطمس إدراك النفس ، والتشكك حتى لدرجة إنكار واقعية عالم الحس ، ويستثنى من ذلك الفكر الصينى ، الذى هو فى جملته فكر فردى ، إنسانى ، يكاد يكون أنانياً ، ويتمركز حول الأسرة بكل تأكيد . كما أننا لا يمكننا أن ننكر التفاوت بين الحكيم الهندى أو الفقير الهندى ، الذى بعزلته التامة وغرابته بوجه عام ، قد يأتى عليه يوم ويتخذ لنفسه نفس الفردية التى يناضل فى صلابة وعناد للتخلص منها .

وفى الفصول التالية سنأخذ على عاتقنا القيام بعملية مسح لتاريخ الفكر الشرقى من أقدم العصور ، متخذين كعلامات لنا على الطريق كبار الشخصيات التى استحقت ، أكثر مما أستحقت فى الغرب ، لقب الزعماء والحكماء ، ومنهم عدد كبير يبدو أنهم أكثر من إنسانيين فى شخصياتهم ؛ وقليل منهم كادوا يكونون خليطاً من بشر وقديسين . لقد اتجه العقل الغربى إلى فصل القدرات المختلفة للإنسان ، تماماً كما فصل العلوم وفروع الأدب ، ومختلف الحرف والمهن . فقد يكون الإنسان شاعراً أو براد طائرة . وعلم الأحياء علم بكل معنى العلم ، وهذه المقطوعة الشعرية شعر وجدانى . ولدينا معايير يمكن أن نرتب فيها كل شىء ، وتكون المعرفة أحياناً مماثلة فحسب للقدرة على قراءة البطاقات . وقد تخلى الشرق عن هذا الاتجاه نحو الفصل ، ففلاسفته فى آن واحد شعراء وسلوكيون وساسة . وديانته مزيج من الأسطورة الشعرية والمنطق الدقيق ، والمعرفة أكثر من جمع المعلومات ، فهى لون من الحكمة التصويرية ، ونحن فى العالم الغربى قد ظللنا أمداً طويلاً جاهلين بهذه النظرة الموحدة .

فجر العقل :

كتب توماس بين Thomas Paine فى عصر الثورة الفرنسية ، معبراً عن إيمانه بأن « فجر العقل » قد لاح فى أوربا وأن ليل الخرافات الحالك قد ولى أخيراً[٥] .

فمتى كان أول « فجر للعقل » ؟ هذا سؤال لم يتوقف قط عن أن يحير المؤرخين

(٥) انظر حقوق الإنسان (١٧٩١) . The Rights of Man (1791).

والأنثر وبولوجيين والفلاسفة وعلماء النفس . لابد أنه حل ، لوكان هذا التعبير صحيحاً كل الصحة ، قبل أقدم تاريخ تسجيلى بوقت طويل ، لعله كان أقدم من مثل ذلك العهد السابق للتاريخ كما يمكننا أن نستنتج مما رسم على الصخور ومن الآلات المستعملة ومن النصب التذكارية أو المدافن القديمة . لقد كتب «فولتير Voltaire» فى «مقال عن العادات» Essai sur les Moeurs : «أريد أن أعرف ما هى المراحل التى مر بها الناس من حالة الوحشية إلى حالة التحضر» ، ونحن جميعاً ، فى الحقيقة نريد أن نعرف ذلك ، إذ بالرغم من التقدم العظيم فى التنقيبات الأثرية الذى مكننا من إماطة اللثام على الأقل عن ست حضارات – أعنى المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والكريتية والدرافيدية – لم نقترب من الإجابة على هذا السؤال أكثر من اقتراب فولتير منه ، إذ أن كل ما نعرفه فحسب هو كم عدد السنين التى علينا أن نعود بها إلى الوراء – لنكتشف أن الناس كانت لهم بالفعل حضارة ما .

وبرهان الفن برهان مضلل ، فصور الكهف بل حتى النحت فى العصر الباليوليثى أو العصر الحجرى القديم (من حوالى ١٠٠,٠٠٠ ق . م .) يعد رفيع المنزلة لو حكمنا عليه بالبرهان الراهن بمقارنته بأى شىء أنتج خلال العصر الحجرى الحديث (حوالى ٥٠٠٠ ق . م .) اللهم فيما يتصل بالفخار ؛ ولا تعد رسومات كهف « دوردونى Dordogne » و « الأندلس » قطعا فنية رائعة فحسب ، بل هى بوضوح جزء من تقليد له بالفعل بعض القدم ، ولا يمكننا أن نتصورها سواء على أنها هوايات «منفصلة» أو أعمالاً لبعض العباقرة غير العاديين . ومن المحتمل أن تكون أعمال العباقرة قد اندثرت ، وأن هذه هى فحسب الجهود التقليدية لرسامين كانوا يؤجرون باليومية .

وبالنسبة لأقدم كتابة ، يجب علينا أن نتحدث بتحفظ مماثل . وسواء استخدمت الكتابة أول ما استخدمت لتسجيل الأرقام مرموزاً إليها بِشُرَط مستوية أو على شكل أصابع ، أم كانت مجرد تجريد من نوع من أنواع الكتابة التصويرية للإشارات مثل الكيو – وان Ku-Wan الصينية ، فإننا يمكننا أن ندعى ، ونحن على صواب ، أن تطورها إلى حد الكمال يفترض مسبقا وجود حضارة جديرة بالاعتبار غير مكتوبة ، غير مسجلة ، سابقة للحضارة التى عرفت الحروف الأبجدية . وتعتقد شخصية لها مكانتها العالمية : دكتور ديفيد دير نجر Dr. David Diringer أن حروف الهجاء كما نعرفها اليوم لابد أنها اخترعت فى منطقة فلسطين سوريا حوالى منتصف الألف سنة الثانية ق . م ، ولكن المصريين كانوا

يستخدمون حروفاً أبجدية فى وقت مبكر عن ذلك ، (حوالى ٣٠٠٠ ق . م) . أما عن أن الكتابة كانت فى الأصل فنًّا أو مهنة عند الأقلية أو على الأقل لتسجيل الموضوعات الغامضة والمختارة ، فهو أمر يمكن استنباطه من قِدَم كلمة « هيروغليف Hieroglyph » التى تعنى حرفيًّا « نقش مقدس » ، كما أن نشاط الكتابة فى جملته لم يفقد معناه الغامض فى مجتمع كان ، مثلما هو عليه الآن ، ولا يزال يحترم الأدباء عمن يعرفون القراءة والكتابة فحسب ، ومن « يؤلفون » عمن يستطيعون الكتابة فحسب . وأخيراً ، فإنه من الضلال أن نستخلص استنتاجاً من الحالة الذهنية للقبائل أو للأناسى الذين ينعتون فى تهكم بأنهم « متوحشون » اللهم إلا إذا كان مفهومنا عن الوحشية قد لحق به مؤخراً تعديل جدير بالاعتبار : من ناحية كنتيجة لمنافسة بعض الشعوب المتحضرة للأساليب التى تعد حتى الآن بدائية ، ومن ناحية أخرى لأن تقدم الدراسات الأنثرو بولوجية قد تخلص من أفكار معينة دائمة تدور حول « لا عقلية » الثقافة الأكثر بدائية .

وفضلاً عن هذا ، فإن « المتوحشين » الذين دُرست عاداتهم فى الأزمنة الحديثة ، هم بالفعل أولئك الذين تعرضوا للفساد باتصالهم بالحضارة الغربية : اتصال كان يميل فى بادئ الأمر إلى إفسادهم ثم ، كما يحدث كثيراً ، لا يمهد لانقراضهم [٦] . وكانت هناك عادات معينة مقترنة تقليديًّا بالثقافة البدائية ، مثل السحر بل حتى العرافة ، وهى لا تعد الآن وقفاً أبداً على تلك الحضارة ، بل بالأحرى تشكل عنصراً من العناصر فى كل حضارة . والواقع أن عدم وجودها أو إهمالها ، أو أسوأ من ذلك كله استئصال الأشخاص ذوى العقول المنطقية استئصالاً منظماً لها ، قد يكون العلة لضرر خطير يلحق بالاستقرار الحضارى . وذلك سبب آخر من أجله ينبغى على القراء الغربيين أن يسعوا إلى فهم أفضل لفكر الشرق الذى تحقق فيه انفصال الدين والفلسفة والسحر والعلوم انفصالا أقل عنفاً مما حدث فى أوربا وأمريكا .

فكرة عصر ذهبى :

إن عاجلا أو آجلا سيكتشف الباحث فى أصول البحث نفسه أنه هو نفسه يتبصر فى احتمال أن نوعا من تخل عن نعمة ، ونوعا من ثورة عارمة ، اضطر إليها الجنس البشرى ، وهو مازال

(٦) لم يوجه الأنثرو بولوجيون اهتماماً كافياً لتحقيق تعريف « المتوحشين » أنفسهم للـ « متوحش » وقد تحمل النتائج تفسيراً .

ابن الطبيعة ، لكى يقى نفسه ، « ليتوقف ويفكر » ، ليتحمل أعباء الحرية ، وقد يبدو من مثل هذه اللحظة ، أن التكامل الفلسفى لابد وأنه بدأ طريقه الأعرج . وقصة الطوفان التى كان يعتبرها أجدادنا الورعون كأسطورة ، قد صارت فى نظر خلفائهم المتشككين حقيقة تاريخية . وإذا لم تبرهن اكتشافات سيرليونارد وولى Sir Leonard Woolley فى العراق على صحة ما ورد بالإنجيل من قصة نوح وسفينته ، فهى توحى على الأقل بصدقها الرمزى[٧] وبالنسبة لغرضنا الراهن ، فإننا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل هل كان ما يطلق عليه « هبوط الإنسان » حدث تاريخى ، هل كان كما يميل « النقد السامى » للإيحاء به ، مجرد حدث روحى بحت (أيًا كان المقصود) . إن ما نريد أن نسأله هو : هل كان المجتمع السابق لهذا الهبوط يمثل ، كما يُظن عادة نوعاً من « العصر الذهبى » ؟ . لماذا ينبغى أن يكون الطبيعى أو غير المتحضر ، بالضرورة ، أكثر أمنا وصفاء أو أكثر رغبة فيه من « غير الطبيعى » أو المتحضر الذى كثيراً ما يدعى أكثر مما يبرهن . وقد ذكر الأستاذ بيرى Professor Perry فى بعض كتب طريفة جداً له ، ذكر حالة افترضت وجود ظروف بشرية سابقة للحضارة ، ليست بعيدة جدًّا بدرجة لا يمكن تصديقها ، لم يكن للحروب ولا حتى الخلافات بين القبائل وجود على الإطلاق .

ومثل هذه النظرية ، لو كانت صحيحة ، لا تتضمن بالضرورة ، الرأى القائل بأن الحياة الاجتماعية كانت أشبه بقصيدة رومانتيكية طويلة وبقيت على هذا المنوال منذ البداية.وبفحص أقدم قانون تشريعى معروف (ولذا فمن المحتمل أن يكون « عتيقا فى القدم ») أى قانون حامورابى ، مثلا ، نخرج بانطباع لا عن المعاملات البسيطة أو العلاقات الإنسانية القويمة ، والمنازعات الشائعة ، أو أساليب الإنصاف الواضحة ، بل ما هو على النقيض من ذلك تماما ، انطباع عن : مجتمع مناضل ، شديد اليقظة وحكيم ، فيه تشاجر الناس وكان من المعروف دائماً أنهم يتشاجرون بقدر ما يتشاجرون الآن ، ومن المحتمل أنهم كانوا يلجأون إلى القانون مراراً وتكراراً ، ولعل قانون « العين بالعين والسن بالسن » كان القانون العام السائد قديماً برغم أنه لم يكن القانون الوحيد ، إذا حكمنا على أقدم وثيقة قانونية معروفة (والمحفوظة الآن فى القسم المصرى من المتحف البريطانى) تتناول قصة نزاع على ميراث . وكلما كانت الحياة البشرية أكثر طبيعية ، صارت أكثر إيلاما فى كثير من الجوانب . وإذا وجدنا إشارات عن

(٧) أما عن بيان الأساطير المختلفة عن الطوفان فارجع إلى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

« هسيود Hesiod أو حتى عند أفلاطون عن « عصر ذهبي » بعيد ، فلسنا فى حاجة إلى أن نتقبل ما تضمنته إشارتها إلى أن الحياة كانت فيه حياة نعيم وصفاء مقيمين . و « العصر الذهبي » كما يختتم به هـ . ج . ماسنجهام H.J. Massingham بحثه المقتضب الرائع [٨] . هو ذكرى الإنسان الغامضة عن شبابه هو نفسه . ومن ثم فإننا يجب ألا نحصره فى وقت محدود ، ولكن إذا استطعنا أن نسترجع فى خصائص الذكريات المشاعر التى خبرها فى مرحلة الشباب ، لوجب علينا أن نعرف لأى شيء تكون تلك الفترة ، أعنى فترة هَمٌّ عقلى وجسدى ، نتمنى كثيراً أن نتخلص منها . « والعصر الذهبي » ذهبي فقط بالتأمل فى الماضى ، مذهَّب فقط من خلال الفحص .

---

(٨) « العصر الذهبي : قصة الطبيعة البشرية The Golden Age : The story of human nature. (لندن ١٩٢٧) .

obeikandl.com